
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

الفطرة: خرائط المفهوم.. وبناء المستقبل

د.هبة رءوف عزت
باحثة أكاديمية

يعد مفهوم «الفطرة» من المفاهيم الأصيلة في التراث الإسلامي، لجهة استخدامه في عدد كبير من النصوص الشرعية من كتاب وسنة، أو لجهة استعماله في نصوص التراث الإسلامي في سياق الحجاج والاستدلال والإثبات.

إن المتتبع لمدلولات هذا الجذر الثلاثي «ف ط ر» ليلحظ بوضوح أثر التطور الدلالي الذي طرأ على أصل مدلوله، ومدى تأثره بالمعاني المستمدة من نصوص الشرع ثم التراث الإسلامي.

فالفطر: بالفتح، الشق، وقد قيده بعض اللغويين بالشق الأول، ومنه قوله تعالى: ﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣﴾ (سورة الملك: ٣)، وقوله ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾ (سورة الانفطار:١) أي انشقت، والفطرة: الابتداء والاختراع والخلق، ففطر الله الخلق: خلقهم وبدأهم.

لقول رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء، ثم يقول أبوهريرة واقرءوا إن شئتم: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾» (صحيح مسلم: كتاب القدر).

و ابتداء الخلق في التصور الإسلامي مقترن بنهاية الإنسان ومآله، ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢﴾(يس:٢٢).

كما نجد أن الفطرة تقترن في التصور الاسلامي بالوحدانية والدين، فالدين فطرة، والشهادة الأولى التي أخذها الله من ذرية بني آدم مغروسة فيها، لكن الوعي بها يتأثر بالبيئة والتنشئة والمجتمع، وهنا تصبح الفطرة قرينة التصور الإسلامي للبراءة الأولى للنفس عند الميلاد في مقابل فكرة الخطيئة الأولى في الخطاب المسيحي تاريخيا من جهة، وقرينة توحيد الله أصلا في فطرة الإنسان بشهادة التوحيد التي كانت في الأزل.

﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ (الروم: ٣٠).

كما تلفتنا الآيات القرآنية لاقتران الفطرة الإنسانية بخلق السموات والأرض، فالله هو الفاطر وسنن الأنفس والآفاق تتقاطع:

﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾ (الأنعام: ٧) ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ (الأنعام: ١٤).

وتبدو الفطرة التي فطر الله الناس عليها مصدرا للهداية وبوصلة للحق أودعها الله في قلوب العباد: ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧﴾ (الزخرف: ٢٧)، ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٦﴾ (الأنبياء: ٥٦)

بل تبدو مستعصية -حين يكون الإيمان هو النور الذي يحمل الإنسان في مسيرة الحياة- على أن تتقبل البغي أو ترضى بالطغيان، فنتأمل قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢﴾ (طه: ٧٢) ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٥١﴾ (هود: ٥١) ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾ (الإسراء: ٥١).

والنظر في الفطرة جامع ومانع،

جامع للذكر والأنثى، لكنه يميزهما عن الجان والملائكة، ﴿ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾.

والفطرة مكون من رباعية مفاهيمية للأمانة والخلافة الإنسانية التي يحاسب الله عنها العباد يوم القيامة، والتي يكشفها النظر في كتاب الله، تلك الرباعية هي: الفطرة، والعقل، والوحي، ثم السنن التي يدركها الإنسان بالسير والنظر.

وعلى ذلك، فإن الفكر الإسلامي يحتاج لإعادة النظر في مفهوم «سنن الفطرة» الذي اقتصر على ما يتعلق بالجسد من عناية وحق للبدن، ليخرج بفهم الفطرة لأفق فهم آيات النفس الإنسانية في تفردها.. وفي اجتماعها وعمرانها.

وهنا يلعب القصص القرآني دورا مهما، ويصبح البحث في مفردات: الإنسان- الأمة- القوم- المدينة- بني آدم- الناس- البشرية.. وما يتعلق بها من خصائص يتناولها القرآن شديدة الصلة بالبحث في الفطرة.

ويتقاطع هذا البحث في الفطرة مع جدل عريض احتل مساحة معتبرة في الفكر الإنساني عن الطبيعة البشرية، وما ارتبط بذلك من نظريات الدولة وطبيعة المجتمع، فمن ذهب إلى أن الطبيعة البشرية تقوم على الصلاح والخيرية، قدم نظريات للمجتمع تقوم على إطلاق حركته وتأكيد دوره وفاعليته في مقابل سلطة محدودة الحجم والأدوار، ومن ذهب إلى أن نوازع الشر هي الغالبة، منح سلطة أكبر للحكومة في مواجهة الفرد والمجتمع، واعتبر الدولة هي التي تحفظ المصالح والمقاصد. نجد ذلك في الفكر اليوناني في اعتبار المدينة شرط اكتمال الإنسانية، فالفطرة الفردية لا تقيم حضارة ولا تحفظ إنسانية، في حين جادل ابن طفيل ومن بعده ابن سينا في أولية الفردية، والانفراد في نقاشهم حول نموذج الإنسان المنفرد في حي بن يقظان. هذا الجدل نفسه هو ما صاغ نظريات الخلافة والعمران في التاريخ الفكري، فمن رأى الوازع السلطاني هو ضمان تطبيق الشرع، توسع في سلطان الحاكم وتحفظ على الخروج عليه، ومن وجد أن الأمة هي الحافظة، والوازع الديني هو الأسبق كبعض المعتزلة، قدم من الأفكار ما يقدم الجماعة على السلطان، وهكذا.

ويبدو مفهوم الفطرة أيضا متقاطعا مع مفهوم الإنسانية والبشرية الأوسع، وجل النظريات التي تحدثت عن القانون الطبيعي والمواطنة العالمية من المدرسة الرواقية التي بزغت بعد سقوط دولة أثينا مرورا بفكر الفارابي عن المعمورة الفاضلة وصولا لأفكار الكوزموبوليتانية والعولمة الحديثة تدور حول مشترك إنساني، ومفهوم الفطرة هنا يسهم في هذا النقاش باعتبار مصدره الديني واستصحابه معاني ومعالم التوحيد.

وإن شئنا العودة إلى ابن خلدون مرة أخرى في مقولته العميقة:

«اعلم أن حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال».

فإننا سنحتاج مفهوم الفطرة في الكشف عما يصيب النفس الإنسانية حال التأنس والتوحش، وكيف يمكن استنقاذ الفطرة حين يسود التوحش كي يمكن رد الإنسان -الفرد والجماعة- إلى التأنس مرة أخرى.. وإحياء الفطرة السوية لتعلو فوق النزعات اللاإنسانية في وقت النزاعات، وإدراك أن قواعد الشرع المنظمة لذلك غايتها ليس فقط حفظ المقاصد الكلية، بل كذلك حفظ الفطرة الإنسانية من السقوط وقت الحروب والتنازع، وبذلك يدخل المفهوم في فهم فقه الجهاد، وفي فهم مقومات وأصول الدعوة لهذا الدين.

لقد كتبت الدكتورة عائشة عبدالرحمن نصا فريدا بعنوان: مقال عن الإنسان، وكثر حديث الشيخ محمد الغزالي في خطبه وكتاباته عن «الرهان على الفطرة»، ونجد الكثير من ذلك مبثوثا في دستور الأخلاق لدى المسلمين في كتابات عبدالله دراز ثم في كتابات فريد الأنصاري، لكن تحرير تلك الرؤية من الكتابات التي تحمل اسمها ليتحول لمفهوم نظري وتوليدي فاعل في شتى القضايا المطروحة اليوم على العقل المسلم سيكون نقلة نوعية ليس فقط في تحليل القضايا الراهنة، بل في إعادة قراءة الفقه ووعي الفقهاء بهذا المفهوم في مساراتهم الاجتهادية وموازين المصالح والمفاسد.

لقد آن الأوان لمفهوم الفطرة- ذلك المفهوم الذي يربط شهادة الأزل بمسار التوحيد والهداية والرشد في هذه الدنيا، ويؤسس لمعايير المحاسبة في الآخرة- أن يغدو المفهوم القاطرة للفكر الإسلامي ومساهماته في الجدل الراهن بشأن قضايا الإنسان، كما يمكن أن يكون القاعدة الصلبة للمشروع الإسلامي والدعوة الإسلامية في مرحلة التجديد الراهنة نحو أفق مستقبلي للإسلام ورسالته كرحمة للعالمين.